

التجديد في شعر بشار

بشار بن برد شاعر أعمى، نشأ في العصر الأموي، وذاعت شهرته في العصر العباسي، وقد نظم شعراً كثيراً لاسيما في الغزل والهجاء، وقد أمر الخليفة العباسي (المهدي) بقتله بعد أن جاوز الشاعر السبعين من عمره (١).

أما سبب قتله فيرجعه الكثيرون إلى اتهامه بالزندقة، وبالفحش في شعره. وربما تكون هناك أمورٌ أخرى، أحدها هجاء بشار لوزير المهدي يعقوب بن داود، والذي كان سبباً في حقد الوزير عليه، مما دفعه إلى تشويه صورته أمام الخليفة.

وقد ضاع أكثر شعره بعد مقتله، إذ يقال إنه نظم ما يقرب من (١٢) ألف قصيدة، لم يبقَ منها إلا ما يقرب من (٢٠) ألف بيت في زمن ابن النديم، كما روى ذلك في كتابه (الفهرست) (٢).
إلا أن هذا العدد الذي ذكره ابن النديم لم يبقَ منه إلا النزر اليسير الذي نقلته لنا كتب التاريخ والأدب

فما قيمة شعر بشار؟ وما أهم خصائصه ومميزاته؟ وهل استطاع بشار أن يجدد في شعره في جانب لم يكن مسبوقةً إليه؟

نعم، استطاع بشار أن يفعل ذلك كما ذكره القدماء. حيث أشار الأصمعي إلى أن بشاراً ((سلك طريقاً وأحسن فيه، وتفرد به، وهو أكثر تصرفاً وفنون شعر، وأغزر وأوسع بديعاً)) (٣).

وهذا الطريق الذي سلكه بشار هو طريق (البديع) الذي أجاد فيه أيما إجادة. وقد روى ابن رشيقي القيرواني أن الرواة قالوا: "أول من فتق البديع من المحدثين بشار بن برد" (٤). حيث جاء بأمور بديعية لم يسبقه أحد إليها؛ ولهذا كان من كلامهم: "بشار أبو المحدثين، أو هو من اشعر المحدثين" (٥). والذين كان يُطلق عليهم في ذلك الوقت (المولّدون) فعدّوه أولهم، وآخر المتقدمين من الشعراء الإسلاميين.

أما إنه آخر المتقدمين؛ فلأن لهجة شعره، وجزالة ألفاظه، وذكر مفاخر القبائل، وأيامها وانتصاراتها، كلّ ذلك لم يقصّر في شيء منه عن المتقدمين. ولهذا كان الأصمعي يقول: بشار خاتمة الشعراء، والله لولا أن أيامه تأخرت، لفضّلته على كثير منهم (٦).



في دارك... إتهنّو علمو قرابتة إصغارك

ويبدو أن بشاراً سلك في قوالب فنّه طرقاً جديدة لم تسلك من قبله. ولهذا تقدّم طبقات المحدثين، وأصبح البارز بينهم، وما يؤيد ذلك ما قاله ابو الفرج الأصبهاني في حديثه عنه، من أنّ " محلّه في الشعر، وتقدّمه طبقات المحدثين فيه بإجماع الرواة، ورياسته عليهم من غير اختلاف في ذلك، يغني عن وصفه، وإطالة ذكر محله " (٧).

وقد حفل شعر بشار بكثير من المعاني الجديدة التي استمدها من حضارة عصره، كرقعة النسيب، والإقذاع في الهجاء.

كما اتسم أسلوبه بالصور البيانية الجميلة، والمحسنات اللفظية، والمعاني الفلسفية والعلمية. وهو بذلك يخرج على طرائق الشعر العربي القديم؛ ولهذا عدّ بشار أولّ المولّدين، وقد أعجب الشعراء بطريقته هذه، فاقتفوا آثاره، ونسجوا على منواله. وقد أشار ابن رشيق إلى جانب من ذلك حيث عدّ حُسن تصرّفه في أنواع الشعر من جدّ وهزل، وحلو وجزل، مدعاة لحيازته قصب السبق فيها (٨).

وسئل بشار عن هذه الطريقة الجديدة في شعره والتي تفوّق فيها على غيره فقيل له: " بم فقت أهل عمرك، وسبقت أبناء عصرك؟ في حُسن معاني الشعر وتهذيب ألفاظه؟ قال: لأنني لم أقبل كلّ ما تورده عليّ قريحتي، ويناجيني به طبعي، وبيعهته فكري. ونظرت إلى مغارس الفطن، ومعادن الحقائق، ولطائف التشبيهات، فسرت إليها بفكر جيد، وغريزة قوية، فأحكمت سبرها، وأنقيت حرّها، وكشفت عن حقائقها، واحترزت عن متكلفها، ولا والله ما ملك قيادي الا عجاب بشيء مما آتي به " (٩).

وقد رزق بشار ذهنًا متفتحاً، وفطرة صافية، كما كان لفقد بصره أثر في تقوية خياله، وسرعة الحفظ في ذاكرته، حتى حفظ كثيراً من المعارف والعلوم والآداب. وقد أتيح له أن ينشأ بين فصحاء العرب من بني عقيل فيستفيد منهم. كما كان لسكنه في البصرة أثر كبير في ذلك؛ حيث كانت البصرة سوقاً رائجة للشعر والثقافة والعلوم.

كلّ هذه العناصر تركت أثرها الواضح في طبيعة بشار وشعره، حتى عدّ زعيم المحدثين كما ذكرنا. وهي زعامة تُردّ إلى أنه استطاع أن يمهدّ السبيل لمن كان حوله، ولمن جاء بعده، وهي سبيل تقوم على التمسك بالأصول التقليدية للشعر العربي من جهة، ومن جهة أخرى تفسح المجال أمام الشعراء لينطلقوا في عالم رحب لا تقيده قيود، ولا تحدّه حدود، كالخروج على الصيغ والأوزان المعروفة في اللغة. وكالتحليق في الخيال لتقديم صور فنية جميلة.



في دارك... إمتحن علمي قرابتة إصغارك

وقد عُرف عن بشار أنه استخدم صيغاً وأوزاناً خارجة على المقاييس اللغوية، مثل صياغته من (الْوَجَل) مصدراً على وزن (فَعَلَى) وهو غير معدود في المصادر، مثل قوله: (١٠)

فالان اقصر عن سميّة باطلي وأشار بالوجلّى عليّ مشير

فالوجلّى مشتق من الوجل، أراد به التقوى.

وهو بذلك يفتح باباً أمام إبداع الشاعر العباسي بحكم رقيه العلمي، ومعيشته الحضارية وبذلك ازدهر الماضي في الحاضر، ونما الحاضر من خلاله هذا النمو الذي جعل الشعر العربي عنده يحتفظ بشخصيته الخالدة، وحقاً حدث فيه تجديد واسع، ولكنه تجديد لا يفصله من تراثه، بل يتيح لهذا التراث أن يعاد خلقه بحسّ متحضّر، وذوق مرهف، وعقل بصير (١١).

فصنعتة الشعرية - إذاً - كانت تقوم على الموازنة الدقيقة بين العناصر القديمة في الشعر العربي، والعناصر الجديدة المستمدة من الحضارة والثقافة المعاصرة.

ولكن، هل استطاع بشار أن يقوم بمهمة التجديد هذه من غير أن يعتمد على خيوط الضوء التي كانت تشعّ من بعض شعر سابقه ومعاصريه؟

المُلاحظ أن تجديد بشار كان يستمد ظلاله من بعض الشعراء الذين حاولوا التجديد في ناحية من نواحي شعرهم. وقد حاول أحمد كمال زكي أن يبيّن الجوانب التي تأثر بها، والشعراء الذين أخذ عنهم، فذكر أنّ حارثة بن بدر فتح له آفاق الخمر واللّهو، كما فتحها له الوليد بن يزيد، وجريز يفت نظر بشار بأسلوبه الذي يقرب من أفهام العامّة، وقد فُتن به بشار فعلاً، وأراد الالتحام معه في هجاء، فأبى جريز أن يمنحه هذه الفرصة، ومن ثم قال بشار: لو أجابني لكنتُ أشعر الناس. وذو الرمة يجيد التشبيه، ويعرف بشار سر إجادته، فيقبل عليه، وينفخن فيه، ويصدر بصور أثارت عليه القدمات، ويختلف في مناقشتها المحدثون. والسيد الحميري يقدّم لبشار النموذج الشعري القوي في إطار لغويّ بسيط. وبذلك يستطيع بشار أن يؤلف بين شتيتهم ليمثّل في عصر التجديد نهضة في شعرنا (١٢).

ويرى الدكتور نجيب محمد البهبيتي أننا " إذا حلّلنا شعر بشار إلى عناصره، أمكننا أن نرجع بكلّ منها إلى أصل سابق، ولم يبقَ خالصاً منها إلا أثر من شخصيته" (١٣). "فنه خليط من فنّ ابن أبي ربيعة وفنّ الوليد بن يزيد جميعاً" (١٤).

وإذا كان كلامهما فيه شيء من المبالغة، فإنه لا يخلو من بعض الحقائق التي تشير إلى تأثر بشار بأشعار هؤلاء وغيرهم، وانعكاس هذا الأثر في شعره بصورة أو بأخرى. إلى جانب ما ذكرناه من مقدرة بشار في صياغة شعره، وفي ابتكاره لبعض المعاني، وفي دقّة رسمه لصوره



في دارك... إنهم على قرابت إصغارك

الشعرية، التي كانت انعكاساً لحضارة عصره التي " رقت حسّه، وفتحت له أبواباً من المعاني والصور التي تتمّ عن أثر البيئة وما شاع فيها من ترف مادي، وشعور رقيق حاد " (١٥).

وأشار الدكتور البهبيتي الى نواحي التجديد في شعر بشار. فرأى أنها محصورة في طريقة التعبير، وفي تحقيق شعبية الشعر والتوسّع فيها، " أما التجديد في الصياغة، فلم يكن من بشار تجديداً اختيارياً، وإنما كان اسير تلك العاهة التي فرضها عليه القدر فرضاً، ولم يكن منه مهرباً، أو إلى تجنبه سبيل. فبشار يذهب في التشبيه، وفي تلك الفنون البديعية التي تعتمد على الصورة والخيال، مذهب الشعراء، يطلبها مطلبهم، ويلجّ عليها إلحاحهم، ويحاول أن يجوّدها، وقد أصاب من ذلك الكثير، وعُرف له منها ما اشتهر وما قُبِلَ عصره، وسلّم بحسنه وجدّته. وهذا التجديد في التشبيهات إذا كان قد أخذ من عصره مأخذه، وذهب القوم في استحسانه إلى الحدّ الذي بلغوه، ... فليس هو اليوم بالقياس إلينا مثله إليهم، فعماد التشبيه البصر والرؤية، وذكاء الحس، ودقة إدراك العلائق والفوارق بين الأمور، والعاملان الأخيران يصبحان ثانويين جداً بالقياس إلى الأول، وتندعم قيمتهما في بعض الحالات انعداماً تاماً، وذلك حين يأتي الشاعر التشبيه معتمداً على ما حصله عن طريق السمع من اركانه، وما رسخ في النفس من مفاهيم للأشياء، قد تكون مخالفة لحقائقها مخالفة كبيرة، وبشار ولد أعمى فما نظر إلى الدنيا قط، وهو لذلك مجرد من كل أثر، وكل فكرة عن الأشياء من حيث الرؤية والشكل واللون والجرم والتناسب " (١٦).

ومحاولة تضخيم آفة العمى، وعدّها السبب الذي دفع بشاراً إلى التجديد في صورته، محاولة غير موفقة؛ ذلك لأنّ تاريخ الشعر العربي والعالمي، حافل بعدد من الشعراء الذين أصيبوا بهذه الآفة منذ زمن (هوميروس) إلى وقتنا الحاضر، إلا أن ذلك لم يدفع هؤلاء الشعراء إلى أن يحدوا عن طريق سابقهم، ويخرجوا على المألوف من صورهم.

وكانت آفة العمى المحور الذي دار حوله أحمد كمال زكي حينما تكلم على تطور الصورة الشعرية عند بشار، ورأى أنّ هذه الآفة هي التي دفعته إلى أن يوسّع دائرة العلاقات بين الأشياء، قال: " أمّا الصورة الشعرية فما حدث على يديه فيها قد تكون عاهته دفعته إليه في أول الأمر، ولكنّه جوّد وصدّر عن طبع، واستلمح الشعراء صنيعه فاحتذوه، ولقد كُنّا نرى من تقاليد القدماء أن تكون الصورة الشعرية عندهم حسّية ... فسوف نرى أنّ الحواس وحدها كانت مادة الصورة الفنية في الشعر، ولكنّا لا نرى ذلك عند بشار، فالتشبيه - عنده - بعيد عن حواسه، فافتقد - من هنا - هذه العلاقة القريبة بين المشبه والمشبه به، وقلب الصورة، وغيرها، وحرفها " (١٧). ثم إننا نرى فيما بين أيدينا من شعره،



في دارك... إتهنّ على قرابتك إصغارك

ثم اننا نرى فيما بين ايدينا من شعره أنّ بعض تشبيهاته كان يعتمد على الحواس في إدراك العلاقات بين الأشياء، ومن يتصفّح ديوانه يجد مصداق ذلك. وبيته المشهور الذي أعجب به النقاد قديماً نموذج صالح في هذا المجال، وهو^(١٨):

كأن مثار النقع فوق رؤوسنا واسيافنا ليل تهاوى كواكبه

حتى أنّ الأصمعي قال عن بشار: إنه كان يُشَبَّه الأشياء بعضها ببعض في شعره، فيأتي بما لا يقدر البصراء أن يأتوا بمثله، فليل لبشار يوماً وقد أنشد قوله (كأنّ مثار النقع) ما قال أحدٌ أحسنَ من هذا التشبيه، فمن أين لك هذا ولم تر الدنيا قط ولا شيئاً منها؟ فقال: إنّ عدم النظر يقوّي ذكاء القلب، ويقطع عنه الشغل بما يُنظر إليه من الأشياء، فيتوفر حسّه، وتذكو قريحته، ثم أنشدهم قوله: (١٩)

عميت جنينا والذكاء من العمى فجئت عجيب الظن للعلم مؤثلاً
وغاض ضياء العين للعلم رافداً لقلب اذا ما ضيع الناس حصلاً
وشعر كنور الروض لاء مت بينه بقول اذا ما احزن الشعر اسهلاً

وقد أفاض عبد القاهر الجرجاني في تحليل بيت بشار، وبيان فضل تفوقه، وإنه لمن المفيد أن نستأنس بتعليقه على البيت، قال: " إنك لتجد لبشار من الفضل، ومن كرم الموقع، ولطف التأثير في النفس، ما لا يقلّ مقداره، ولا يمكن إنكاره؛ وذلك لأنه راعى ما لم يراعه غيره، وهو أن جعل الكواكب تهاوى فأتّمّ الشبه، وعبر عن هيئة السيوف وقد سلّت من الأغمام، وهي تعلق وترسب، وتجيء وتذهب، ولم يقتصر على أن يريك لمعانها في أثناء العجاجة، كما فعل الآخرون، وكان لهذه الزيادة التي زاداها حظ من الدقة تجعلها في حكم تفصيل بعد تفصيل، وذلك أنّنا إن قلنا إنّ هذه الزيادة - هي إفادة هيئة السيوف في حركاتها - إنما أتت في جملة لا تفصيل فيها، فإنّ حقيقة تلك الهيئة لا تقوم في النفس إلا بالنظر إلى أكثر من جهة واحدة، وذلك أن تعلم أنّ لها في حال احتدام الحرب، واختلاف الأيدي بها في الضرب، اضطراباً شديداً، وحركات بسرعة، ثم أنّ لتلك الحركات جهات مختلفة، وأحوالاً تنقسم بين الاعوجاج والاستقامة، والارتفاع والانخفاض، وأنّ السيوف باختلاف هذه الأمور، تتلاقى وتتداخل، وتقع بعضها في بعض، ويصدم بعضها بعضاً، ثم أنّ أشكال السيوف مستطيلة، فقد نظم هذه الحقائق كلها في نفسه، ثم أحضرك صورها بلفظة واحدة، ونبّه عليها بأحسن التنبيه وأكمله بكلمة وهي قوله (تهاوى) لأنّ الكواكب إذا تهاوت اختلفت جهات حركاتها، وكان لها في تهاويها توقع وتداخل، ثم أنها بالتهاي تستطيل أشكالها، فأما إذا لم تزل عن أماكنها فهي على صورة الاستدارة " (٢٠) .



في دارك... إتهنّو على قرابتة إصغارك

ومن تشبيهاته التي تعتمد على الحواس، ما ذكره عن سحر العيون وما تفعله في قلوب المحبين. من مثل قوله: (٢١)

حييا صاحبيّ ام العلاء
واحذرا طرف عينها الحوراء
ان في عينها دواء وداء
لملم والداء قبل الدواء

فهو يعتمد - هنا - على المدركات الحسية، ومنها البصر الذي أصيب بفقده، فهذه العيون فيها الداء والدواء، ففي النظرة الأولى تصيب من تنظر إليه بسهامها، وفي النظرة الثانية تشفيه من هذه الإصابة. ومن ذلك قوله: (٢٢)

حوراء في مقتلها حين تبصرها
سحر من الحسن لا من سحر سحر
فالعين مني عن النسوان صائمة
حتى يكون على الحوراء افطاري

ومن تشبيهاته الحسية ما قاله في مدح عقبة بن سلم (٢٣)

مالكي تنشق عن وجهه الحر
ب كما انشقت الدجا عن ضياء

وهذه صورة تظهر فيها مقدرة بشار الفنية في استخدام الصور البيانية، فقد ذكر انشقاق الحرب، وأراد به ظهور الممدوح في ساحة الوغى، أي أنه إذا نزل إلى ساحة الحرب، ذهب سورتها، وانكشفت غمتها، فلجأ إلى الاستعارة المكنية، وشبّه الحرب بالليل، وتخيل ظهوره فيها شقاً لها وتمزيقاً. وإنما يكون تمزيق الحرب بظهور النصر. وقوله: " انشقت الدجا عن ضياء " تشبيه بهيئة انصرام الليل بعمود الصبح، وقد يفهم منه أنه أراد تشبيه وجه الممدوح وقد طلع من بين غبار الحرب، بالضياء الذي يبرز وسط الظلام.

من خلال هذه الأمثلة - وغيرها كثير - يبدو لنا أن آفة العمى لم تكن عائقاً لبشار في أن يقيم علاقات حسية بين الأشياء، وأن يقيم تشبيهاته على هذه العلاقات. إلا أنه بذكائه، وتوفّر حسّه، وتوقّد قريحته، استطاع أن يخرج بالتشبيه من دائرة الحس إلى آفاق الخيال الواسعة الرحبة التي تعمل فيها العلاقات المعنوية، وبذلك تخرج دلالة التشبيه عن المألوف، وتستحيل دلالة تقريبية في

بعض عناصرها إبهام وإيهام (٢٤). كقوله: (٢٥)

وكان رجع حديثها
وكأن تحت لسانها
قطع الرياض كسين زهرا
هاروت ينفث فيه سحرا
وكانها برد الشرا
ب صفا ووافق منك فطرا

فقد شبّه رجع كلامها بقطع الرياض، وذلك أنه نظر إلى هيئة أجزاء الكلام، ومقاطعته في الاختلاف وتنوّع المحاسن، فشبه ذلك بقطع من الرياض في حسن منظرها، وتوشيحها بأنواع من



في دارك... إتهنّو على قرابت إصغارك

الزهر، ليزيدها حسناً، وشبه تأثير كلامها في نفسه، بتأثير السحر، وقد بالغ في الصورة فجعل هاروت تحت لسانها، وهو الذي ينفث فيه السحر، لأنه مشهور به، وحبيبته تتلج قلب حبيبها، كما يروي الماء الزلال البارد غلة الظاميء الصادي. وفي هذا ترأسل بين النظر والسمع في البيت الاول وقد أعجب بشار بتشبيهه كلام حبيبته بقطع الرياض الزاهرة، فدفعه ذلك إلى إيجاد علاقة جديدة بين طرفي التشبيه، من مثل قوله^(٢٦):

ويكر كنوار الربيع حديثها تروق بوجه واضح وقوام
وقوله أيضاً^(٢٧):

وحديث كأنه قطع الرو ض زهته الصفراء والحمراء
وكان يحلو له أن ينتقل من الرياض ونوارها إلى الجنان وثمرها، ليستقي منها صورته، من ذلك قوله^(٢٨):

ودعجاء المحاجر من معد كأن حديثها ثمر الجنان
وفي هذا البيت ترأسل بين السمع والذوق. ويروق له أحياناً أن يُشبه حديث أحبته بوشي البرود في تنوع ألوانه وانسجامها وتلائمها، قال^(٢٩):

وبيضاء مكسال كأن حديثها اذا اقيت منه العيون برود
وهنا ترأسل بين السمع واللمس.
وقال أيضاً^(٣٠):

وانا ليجري بيننا حين نلتقي حديث له وشي كوشي المطارف
فهذه الصورة الجديدة، ذات العلاقات البعيدة، كانت جانباً من جوانب التجديد عند بشار، ذلك أن فن بشار الحقيقي الذي استحق من أجله أن يكون رأس المحدثين في البديع، يكمن في صنعته الشعرية، أو في الصورة الشعرية التي عليها المعول في القصيدة، والصورة الشعرية عند بشار قد بلغت حداً كبيراً من الروعة؛ لإحتوائها على تفاصيل دقيقة، واستقصاء صاحبها لعناصر التصوير المختلفة، وهو لا يترك الصورة من غير إلحاح عليها بريشة فنان أصيل يضع كل لون في موضعه، ولا ينسى أدق الأشياء وأهونها^(٣١)، ومن اهتمامه برسم الصورة، وملاحظته أدق التفاصيل، " ما يروى من أنه أنشد قول الشاعر:

الا انما ليلى عصا خيزرانة اذا غمزوها بالاكف تلتين

فقال: والله لو زعم أنها عصا مخ، أو عصا زُبد، لقد كان جعلها جافيةً خشنة بعد أن جعلها عصا! ألا قال كما قلت:

اذا قامت لمشيته تثنّت كأن عظامها من خيزران^(٣٢)



في دارك... إتهنح على قرابتة إصغارك

وروي أنه لما أنشدَ هذا البيت:

وإذا قلت لها جودي لنا
خرجت بالصمت من لا ونعم

قال له مروان: جعلني الله فداك يا أبا معاذ! هلا قلت: " خرس بالصمت ". قال: إذا أنا في عقلك فضَّ الله فاك! أ تطير على من أحب بالخرس! (٣٣).

وهو في هذا ناقد ماهر، لم تغب عنه الجزئيات، ولم يغفل عن جوانب الحسن في الصورة، ومواطن الإجادة فيها. وهو حين يرسم صورته يوشىها بالأوان والظلال، حتى ليسمعتك الصوت ويريك الحركة، قال: (٣٤)

ايها الساقيان صبا شرابي
واسقياني من ريق بيضاء رود
ان دائي الضما وان دوائي
شربة من رضاب ثغر برود
ولها مضحك كغرّ الاقاحي
وحديث كالوشى وشي البرود
نزلت في السواد من حبة القلب
ب ونالت زيادة المستزيد
عندها الصبر عن لقائي وعندي
زفرات يأكن قلب الحديد

إنه يريد أن يُسقى خمراً، ولكن ليست من هذه الخمرة التي تُطبخ أو تُعصر، ولا تلك التي حُبست في الدنان، ولكنها من ريق حبيبته الشابة المنعمّة. وان شفاءه من دائه، وبرعه من سقامه، مرهون برشفة من رضاب ثغرها البارد، الذي يفتر عن مبسم كأنه غرّ الأقاحي، وينطق بحديث ملذ فيه فنون القول وكأنه وشي البرود، لهذا فإنها جديرة أن تحنل سويداء قلبه، وتمتلك لُبّه وكيانه، وإذا كان لديها بقية من صبر عن لقائه، واحتمال لفراقه، فإنه فقد هذا الصبر، ولم يطق بعادها، فأخذ يطلق أشجانه وآلامه على هيئة زفرات شديدة حادة لا يستطيع مقاومتها قلب الشجاع وإن كان صلداً عنيداً.

ويلاحظ من خلال هذه الأمثلة، أثر المدنية والحضارة في صور بشار وتشبيهاته، والذي عدّ نوعاً من التجديد في الصورة، كما في تشبيه الأحاديث بقطع الرياض أو بثمر الجنان، أو حين يقول " نزلت في السواد من حبة القلب ". على أنه لا ينسى الصورة الشعرية عند القدماء، بل يتمثلها، ويضيف إليها من ذوقه وفكرته، كما في قوله يمدح عقبة بن سلم (٣٥):

كخراج السماء سيب يديه
لقریب ونازح الدار ناء
حرم الله ان ترى كابن سلم
عقبة الخير مطعم الفقراء
يسقط الطير حيث ينتثر الحب
وتغشى منازل الكرماء
ليس يعطيك للرجاء ولا للخو
ف ولكن يلذّ طعم العطاء
انما لذة الجواد ابن سلم
في عطاء ومركب للقاء



في دارك... إتهنّو على قرابتة إصغارك

لا يهاب الوغى ولا يعبد الما
ل ولكن يهينه للثناء
ل واخلى سم على الاعداء
ل واخلى سم على الاعداء

وقد أعجب ابو الفرج الأصبهاني بهذه الأبيات وقال: " إنها من مختار صنعته وصدورها، ومما تشبّه فيه بالقدماء ومذاهيبهم " (٣٦). فقد جعل جود ممدوحه كخراج السماء وهو غيبتها، وقد عمّ هذا الخير كل قريب وبعيد، فكان أن زين الصورة ووشحها بهذا الطباق، وقد كنى عن بلوغ الممدوح الغاية في المحامد بقوله: " حرم الله ... " أي عزّ وجود نظيره، فكان منع الله مجيء مثل ابن سلم، يستلزم كونه من نفائس الموجودات، وأنه لا نظير له، وكل ذلك كناية عن بلوغه غايةً في المجد والكرم لم يبلغها غيره. حتى راح الفقراء يغشون منازلهم، وكأنهم طير تعرف أين ينتثر الحب فتجتمع حوله، وهو في عطائه لا يطمع في جاه أو ولاية، ولا يخاف أحداً، وإنما يجد لذة في العطاء، لأنه طبع على ذلك ونشأ عليه، وهو لا يخاف الحرب، لأنه جريء شجاع، كما أنه ليس من الذين يذلهم المال فيعبدونه، إنما هو الذي يذل المال، ويهينه ببذله، كي ينال به الثناء والحمد، وهو أريحي دمث الأخلاق، يهتر للندى، فيدّ تعطي وتمنح، وأخرى تذييق الأعداء الويل والهلاك، وتسقيهم سمّاً زعافاً، وهذا تقسيم لطيف، قرن فيه بشار المدح بالكرم، إلى جانب المدح بالشجاعة، ووزعها بين يدي الممدوح، فواحدة نعمة، والآخرى نقمة، أو الأولى خير، والثانية شر، وكأنه ذهب إلى وجود عنصري الخير والشر في الانسان، فاستعمل عنصر الخير للأصدقاء والمحتاجين، واستعمل عنصر الشر للأعداء.

وبشار حينما يجاري القدماء في صورهم، لا يقصر عنهم، ولا يكون دونهم، وربما تفوق عليهم، فأتى بما يخلب الألباب، ويسحر العقول، من مثل قوله في قصيدته التي مدح بها قيس عيلان، وافتخر فيها:

إذا كنت من كل الأمور معاتباً
صديقك لم تلق الذي لا تعاتبه

فعض واحداً أو صل أخاك فإنه
مقارف ذنب مرة ومجانبه

إذا أنت لم تشرب مرارا على القذى
ظمئت ، وأي الناس تصفو مشاربه ؟؟

فهذه الأبيات تنطق بالحكمة، لما فيها من فن معاملة الأصدقاء، والتجاوز عن هفواتهم وزلاتهم، فالانسان بطبيعته يخطيء ويصيب، وجلّ من لا يخطيء. ثم انتقل إلى الفخر، فجاء بصور تبهر، استخدم فيها بمهارة مختلف أنواع البيان من تشبيه واستعارة وكناية، قال (٣٧):

أذا الملك الجبار صعّر خده
مشينا اليه بالسيوف نعاتبه

وكنا إذا دبّ العدو لسخطنا
وراقبنا في ظاهر لا نراقبه

ركبنا له جهرا بكل مثقف
وأبيض تستسقي الدماء مضاربه



في دارك... إمتحن علمك قرابة إصغارك

وجيش كجنح الليل يرجف بالحصى وبالشول والخطي حمر ثعالبه
غدونا له والشمس في خدر امها تطالعنا ، والظل لم يجر ذائبه
بضرب يذوق الموت من ذاق طعمه وتدرك من نجى الفرار مثالبه
كان مثار النق فوق رؤوسنا واسيافنا ليل تهاوى كواكبه
بعثنا لهم موت الفجاءة إنا بنو الموت خفاق علينا سبابه
فراحوا فريق في الاسار ومثله قتيل ، ومثل لاذ بالبحر هاربه

لقد كنى عن تجبر الملك وطغيانه بقوله " صعر خده " وقد وُفق في ذلك لأنه أتى بلفظتين تتكون كل منهما من ثلاثة أحرف مضعقة الوسط، وهذا يوحي بالشدة، ثم قرن ذلك بتضعيف آخر في كلمة " الجبار " وصار الشطر الأول يوحي بقوة الملك وجبروته وطغيانه، وكأن الملك أحس بذلك فصعر خده، أي أماله عن الناس تكبراً وتعالياً وتهاوناً بهم، والشاعر وقومه ليسوا من الذين يستهان بهم، أو يُتعالى عليهم، فإذا رأوا ذلك من الملك، مشوا إليه يعاتبونه، ولكن عتابهم ليس بالكلام، وإنما بالسيوف. وقد أثار هذا البيت إعجاب بطرس البستاني فقال عنه: " ويجمل بنا أن لا نغفل عن حسن الصنعة في استعارته العتاب للقتال في قوله: " مشينا إليه بالسيوف نعاتبه " وكان ويوسعه أن يقول: نضاربه أو نحاربه، ولكن الاستعارة هنا أبلغ وأوقع في النفس، وفيها من دقة المعنى وبراعة المدلول شيء كثير، وأي عتاب أشد من عتاب تنتضى فيه الصوارم بدلاً من الألسنة" (٣٨) وهو بعد ذلك يصور العدو بصورة الخائف الجبان، فهو يدبّ دبيباً، ويمشي على هونٍ، ويحاذر ويخاف أن يظهر للعيان، وتقابل صورة الأعداء هذه، صورة قيس عيلان، وهي تناقض الأولى وتخالفها، صورة فيها القوة والبسالة، وفيها السيوف تريد أن تشرب الدم، وفيها الرماح وقد شهرت، والجيوش قد ركبت ظهور جيادها علانية دون خوف أو وجل. وهو بذلك يستعمل التناقضات المتناقضة، ليبرز بها جمال لوحاته الفنية، وليزيدها حسناً وبهاءً، فالخوف يقابله الإقدام، والدبيب يقابله الركوب جهراً، والعدو يراقب وهم لا يراقبون، وكأنه يسير على طريقة " الضد يظهر حسنة الضد ".

ثم انتقل إلى وصف الجيش، فذكر أنه كثير العدد، وأنه بهذه الكثرة غطى قرن الشمس، فكان مثل جنح الليل حينما يسدل أستاره على الكون، وهذه صورة تحمل معاني الفخر والعزة والمنعة، وتحمل أيضاً معاني الخوف والرهبة من جانب العدو، وقد راح هذا الجيش يزحف نحو معسكر الأعداء بجلبته وأصواته المختلطة، وبعده الكثير الوفير، وقد امتطى إبله وشرع رماحه، وكان خروجه لمنازلة العدو في وقت مبكر، والشمس لم تبرح خدر أمها بعد، وهذا الخدر هو الأفق



في دارك... إمتحن علمك قرابة إصغارك

الذي احتجبت خلفه الشمس، ثم أكد هذا الخروج المبكر بقوله: " والطل لم يجر ذائبه " أي قبل أن تطلع الشمس وتذيب الندى الموجود على الأشجار .

لقد انطلقوا في هذا الوقت المبكر يوسعون العدو ضرباً وفتكاً، ويذيقونه طعم الموت الزؤام، وممرارة الفرار الذي يبقى وصمة عار في جبين صاحبه.

وكان من شدة هجومهم، وكثرة خيولهم وإبلهم، أن غطى النقع الرؤوس فعاد الجو قاتماً، حتى بدت السيوف وهي تعلق وترسب، وتروح وتجيء، وكأنها نجوم تهاوت في جنح ليل مظلم. وكانت هذه السيوف تفاجئهم بالموت الزؤام الذي انصب عليهم من كل جانب، فقتلوا من قتلوا، وأسروا من أسروا، ولم يجد الباقون بداً من أن يلوذوا بالفرار، ملتجئين إلى البحر كي ينقذهم وينجيهم من سطوتهم وبأسهم.

وقد أعجب القدماء بهذا التقسيم وقالوا: إن المغلوب لا بد أن يكون واحداً من ثلاثة: فهو إما قتل، وإما أسير، وإما هارب، ولا شيء غير ذلك.

ومن جوانب التجديد في صور بشار، أن عمد إلى تشبيه خفقات قلبه واضطرابه، بالكرة التي يتقاذفها اللاعبون، فهي واثبة ثم منخفضة ثم واثبة وهكذا، وهذا تشبيه بديع نحا فيه بشار منحىً جديداً، حتى جرى المثل كما يقول محقق ديوانه، وذلك قوله^(٣٩):

كأن فؤاده كرة تنزى حذار البين لو نفع الحذار

حتى أن ابن المعتز قال: هذا من أحسن التشبيه^(٤٠). لأن الكرة غير مستقرة، فهي عند هذا مرةً، وعند ذاك أخرى، وفؤاده دائم الخفقان والاضطراب خوفاً من فراق الأحبة. ومعنى الخفوق كثير جداً، إلا أن بشاراً أغرب بذكر الكرة.

وذكر في هذه القصيدة السهادَ وطول الليل، فأعطى لذلك علةً غريبة لم يتطرق إليها القدماء، فعيونه لم تغمض، لأن جفونها مرتعشة، وكأنها سملت بشوك أو كأنها قصار فلا تلتقي، قال:

كأن جفونه سملت بشوك فليس لوسنة فيها قرار

جفت عيني عن التغميض حتى كأن جفونها عنها قصار

ويلاحظ في صور بشار أنه مال إلى التجسيم والتشخيص، وتوسّع فيه، والتشخيص هو إخراج المعاني في صورة الأشخاص، ومع أننا نجد هذه الظاهرة عند باقي الشعراء، إلا أنه أكثر منها فأجاد. ويعلل هدارة بروز هذه الناحية عند شعراء القرن الثاني بأنها كانت ثمرة الثقافة التي شاعت في هذا العصر، قال: " وهناك ناحية أخرى في الخلاف بين الصنعة الشعرية عند الجاهليين وعند المحدثين من شعراء القرن الثاني، وهي أن المحدثين قد أتيح لهم من الثقافة وقوة



في دارك... إمتحن علمي قرابت إصغارك

التمثيل ما جعلهم قادرين على التوسّع حتى في الصور القديمة الجاهلية، وإضافة جزئيات كثيرة إليها، ومحاولة تشخيص الصورة وتجسيماها^(٤١).

إلا أن أحمد كمال زكي أرجع هذه الظاهرة عند بشار إلى آفة العمى، وذكر " أن هذه الآفة هي التي دفعته إلى أن يبتعد في صورهِ عن دائرة الحس، ثم عن منطقة العقل تبعاً لذلك، فاختلف حدّ الرؤية فيها بحدّ الذوق، وحدّ السمع بحدّ اللذة، فقد أصبح من السهل عنده أن تشخّص المعنويات والأشياء"^(٤٢).

وليس هناك مبرر لهذا التعليل، إذ ليس التشخيص من ابتكار بشار، ولا هو أول من عالجه، فالشعر العربي قد عرف التشخيص منذ عصوره الأولى، وما الوقوف بالديار، ومخاطبة الأطلال، وإنطاق الحقائق، إلا نوع من التشخيص، حيث أنّ بعض سمات الاستعارة إنطاق الربع وغيره مما لا ينطق، إذا ظهر من حاله ما شاكل النطق، وهذا شائع في اللغة كثير.

أما ما فعله بشار فهو أنه أكثر من هذه الصور التشخيصية فأجاد فيها، حتى قال عنه هدّارة: " وفن بشار في التصوير الشعري يتجلّى حقاً في ناحية التشخيص، أو إلباس المعاني صوراً آدمية تكاد تنطق وتتكلم، وتروح وتجيء"^(٤٣).

وفن التشخيص يدل على موهبة الشاعر في تجسيم الأشياء المعنوية، وإظهارها بصور مادية. وكان عبد القاهر الجرجاني قد عدّ ذلك فضيلة من فضائل الاستعارة فقال: " ومن خصائصها التي تذكر بها، وهي عنوان مناقبها: أنها تعطيك الكثير من المعاني باليسير من اللفظ، حتى تخرج من الصدفة الواحدة عدة درر ... وتجد التشبيهات على الجملة غير معجبة مالم تكنها، إن شئت أرتك المعاني اللطيفة التي هي من خبايا العقل، كأنها قد جسّمت حتى رأتها العيون، وإن شئت لطفت الأوصاف الجسمانية، حتى تعود روحانية لا تنالها إلا الظنون"^(٤٤).

والفائدة المتوخاة من التجسيم، هو تقريب الصورة الذهنية إلى الأفهام وجعلها ماثلة للعيان، يدرك جمالها من رآها أو سمع صوتها،

ونستطيع أن نستخلص نماذج عدّة للتشخيص والتجسيم من شعر بشار، من ذلك ما قاله في هجاء العباس بن محمد^(٤٥):

وللبخيل على أمواله علل زرق العيون عليها أوجه سود

فهو يصور البخل بأبشع الصور، إذ شبّه علل البخيل بحراس على أمواله، وأثبت لهذه العلل أعيناً رزقاً، ووجوهاً سوداً، على طريق التخيل والتجسيم، وكان قصده في ذلك التشنيع على المهجو، ذلك أن سواد الوجوه مذموم، والعيون الزرق لا تلائم الوجوه السود، فكان هذا تشويهاً لهذه العلل، وتقبيحاً لها. وقال معاتباً يعقوب بن داود^(٤٦):



في دارك... إنهم على قرابتة إصغارك

يعقوب قد ورد العفاة عشية
 فسقيتهم وحسبتي كمونة
 مه لا ابالك انني ريحانة
 تعطي الغريرة درها فأذا ابت
 طال الثواء بحاجة محبوسة
 متعرضين لسيبك المنتاب
 نبتت لزارعها بغير شراب
 فأشمم بأنفك واسقها بذناب
 كانت ملامتها على الحلاب
 شمطت لديك ، فمر لها بخضاب

وهذه الصورة الفنية استمدها بشار من الطبيعة، إذ صور نفسه - في رأي يعقوب - كمونة، والكمون لا يُسقى بل يوعد بالسقي، وزاد الصورة توضيحاً فذكر وجه الشبه، وهو أنها تنبت بغير شراب، ثم ذكر ليعقوب أن هذه الصورة التي تخيلها عنه غير صحيحة، فهو ليس كمونة، وإنما هو ريحانة تحتاج إلى السقي والعناية لتنمو وتزهر، ثم يزيد الصورة تجسيمياً فيقول: " اشمم بأنفك واسقها بذناب " وكأنه يقول له: اسقني تشمم جنائي، ثم بلغ التجسيم مداه، وذلك حينما شبّه حاجته التي طال انتظار تحقيقها، بامرأة عجوز شمطاء طال بها الزمن وطعنت في السن، ثم زاد الصورة جلاءً وتجسيمياً حين طلب من الرجل خضاباً يستر به شيب تلك العجوز.
 ومن التجسيم قوله^(٤٧):

عندها الصبر عن لقائي وعندي زفرات يأكلن قلب الحديد
 فجعل الزفرات مما يؤكل. ومما يستجاد له في ذلك قوله^(٤٨):

وبيضاء يضحك ماء الشبا ب في وجهها لك اذ تبتسم

إذ تخيل للشباب ماءً، وهو مما يُتخيل لحسن الشيء، ثم استعار الضحك لحسن المرأة والإقبال، وبعد أن جسّم ماء الشباب، أضفى عليه صفة الحياء والضحك، وهذا شيء طريف، لطيف لطافة ألفاظ البيت الرقيقة الضاحكة، فحبيبه ببيضاء، والبيضاء دليل صفاء القلب، ونقاء السريرة، وأمانة العفة والطهر، والشيء الحسن تُضفى عليه صفة البياض. وكلمة " يضحك " تبعث على الانشراح والسرور، وتثير في النفس الطأنينة والراحة، و " الماء " مصدر الحياة، وامارة الخير والخصب. و " الشباب " رمز الفتوة والحيوية والنشاط. و " الوجه " علامة الإقبال وموطن الجمال. و " الابتسام " سر الوجود السعيد، ودليل الرضا والبشر. وكل هذه الألفاظ والصور خفيفة رشيقة، ترتاح لها الأسماع، وتلذّ في النطق.

وفي بيت آخر جسّم العتاب، وأضفى عليه صفة الأحياء، ثم سلب منه الحياة وجعله ميتاً، قال:

ليبك لبيك هجرت الصبا ونام عذالي ، ومات العتاب

وحينما أراد أن يصور حلمه، قال:



في دارك... إتهنن علي قرابتة إصغارك

حلمي اصمّ وراحتي للظالمين تحلب

فجعل حلمه أصم، أي أنه لا يصيبه الطيش، ولا يفزع من توافه الأمور وسفاسفها.
وفي حديثه عن الخمرة، وشدة ولعه بها، قال^(٤٩):

شربنا من فؤاد الدن حتى تركنا الدن ليس له فؤاد

فجسم الدن وجعل له فؤاداً وهو الخمرة، وأخذ يشرب من هذا الفؤاد حتى لم يعد فيه شيء.
فكأنه ترك الدن جسماً بلا فؤاد، وهو يريد بذلك نفاذ الخمر الموجود في الدن.
ومن نماذج التشخيص عنده قوله^(٥٠):

لي في قلبي منه لوعة ملكت قلبي وسمعي والبصر

وكان الهمّ شخص مائل كلما ابصره النوم نفر

فوقف له الهم بالمرصاد، وذادَ عن عينه الرقاد، وكان هناك عداوة بين قوي وضعيف، الهمّ قوي،
والنوم ضعيف، فإذا أبصرَ الضعيفُ القوي هرب منه، ولاذّ بالفرار.

يتبين لنا من خلال هذه الأمثلة، صدق ما قالوه عن بشار في أنه سلك سبيلاً لم يسلك من
قبل، إذ كانت صورته تتميز بالغرابة والطرافة، وفيها صور جديدة ليس في شعر الأقدمين ما
يمثلها. وقد تميّز بشار في صنّعه بهذه الناحية التجسيمية، إلى جانب استقصائه لعناصر
الصورة، واستيفائه لأصغر جزئياتها، وأهونها، لتتضح وتتجلي بجوانبها المختلفة.
والذي ساعده على ذلك ما كان يتمتع به من حسّ مرهف، فتح له مجال إقامة العلاقات
بين الأمور المحسوسة وغير المحسوسة.

وكان لسعة خياله فضل في عقد المشابهة بين الأشياء المتباعدة، والقضايا المعنوية، وهو
بهذا يخرج على حدود الصورة الشعرية القديمة، وإذا بهذا الفن عنده يثير من المعاني الغامضة ما
يسبح فيه خاطر، مما جعله يحتل مكانته بين الشعراء بجدارة.



في دارك... إتهنّو علمو قرابتة إصغارك